حضور المقاربات الأنتروبولوجية
في القراءات المعاصرة للفكر الإسلامي

د. نورالدّين كوسة [1]

الجزائر

المقدّمـــة :

تأتي هذه الورقة العلمبّة كمحاولة لمُلامسة حضور **المقاربات الأنثروبولوجيّة** في **القراءات** المعاصرة للفكر الإسلامي، باعتبار أنّ هذا الأخير يطرح أسئلة وإشكاليات تُعبّر عن أحداث لازالت تتميّز **براهنيّة دائمة** ومُلحّة، ممّا أفضى إلى توظيف جملة من المقاربات والرّؤى التي **انحدرت** من **المعارف الغربيّة المعاصرة** في حقل العلوم الإنسانيّة ومن ضمنها **الأنثروبولوجيا**.

وبرغـــم المنشأ الغربـــي لهـــذه الأخيرة – الأنثروبولوجيا – وتأخّر اندراجها كتخصّص ضمن حيّز الممارسة الأكاديميّة في الجامعات العربيّة بعد الاستقلال لأسباب مختلفة، فإنّ السّنوات التي أعقبت استقلال البلدان العربيّة منذ النّصف الثّاني من القرن العشرين حملت في طيّاتها بذور تشكّل أولى البحوث الأنثروبولوجيّة التي أخذت تعرف طريقها نحو النّضج التّدريجي.

وقد أضحت الأنثروبولوجيا بما ابتدعته من **آليات وأدوات منهجيّة** وما انطوت عليه من **تصوّرات نظريّة**، تُشكّل **أحد المداخل** التي تتأسّس

---

1) جامعة فرحات عبّاس سطيف.

عليها **القراءات المعاصرة** للفكر الإسلامي، من خلال مناقشة بعض الزّوايا ذات الصّلة بالتّراث التّاريخي والثّقافي الذي يؤثّث الفكر الإسلامي ويغذّي مرجعيّاته.

1- لمحة حول خصوصيّة الأنثروبولوجيا :

تعد الأنثروبولوجيا من ضمن التخصّصات العلميّة الحديثة نسبيّا إذا ما قورنت بالتخصّصات الأخرى، حيث ظهرت خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر ثمّ بدأت تعرف اندراجها التّدريجي ضمن حيّز الممارسة العلميّة والأكاديميّة [1]، وبرغم قصر عمر هذا التّخصّص العلمي – كما أسلفنا– فإنّه أضحى يمثّل أحد المباحث ذات الحضور اللاّفت في الزّمن الرّاهن، ولاشكّ أنّ ذلك يرتبط بمجموعة من العوامل يمكن إيعازها إلى طبيعة هذا التخصّص [2].

تــتميّز الأنثروبولوجيا بجملة من الخصوصيّات لعلّ من ضمنها وقوعها على أرضيّة مشتركة بين مختلف التخصّصات في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وهو ما أتاح لها أن تَغرِف مــن الزّاد النّظري والمنهجي لهــذه الفــروع والتخصّصات العلميّة، الأمر الذي أكسبها – الأنثروبولوجيا – ثراء وتنوّعا في مداخلها وآليات قراءتها لمختلف الظّواهر والأحداث الاجتماعيّة والثّقافيّة بمختلف أبعادها وتجلّياتها.

ولذا فإنّ الأنثروبولوجيا "تستند إلى خصب معرفي يقوم على تاريخ، هو في الوقت نفسه تاريخ مفاهيمها وفرضيّاتها النّظريّة" [3]، ومن جهة ثانية فإنّ انفتاح الأنثروبولوجيا على مختلف المحاور الاجتماعيّة والثّقافيّة

---

1) Lombard (jaque), introduction à l'ethnologie, paris, Armand Colin, 1999, p. 10-13.

2) Ibid, p17.

3) أوجيه مارك، وكولاين جان بول : الأنثروبولوجيا، ترجمة جورج كتّورة، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ط1، 2008، ص7.

جعل "كل العلوم الإنسانيّة تستند إلى فرضيّات أنثروبولوجيّة مُسبقة غالبا ما تكون كامنة" [1]، ووفق هذا السّياق فإنّ الأنثروبولوجيا إنّما تهدف إلى قراءة للممارسات الإنسانيّة في شقّيها المادّي والمعنوي، في الزّمن الماضي والحاضر من خلال تطبيق آلياتها المنهجيّة والنّظريّة لرصد مختلف جوانب الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة للأفراد والجماعات سعيا لفهم الذّهنيّات.

ولا شكّ أنّ هذا المسعى إنّما يتم من خلال تقديم رؤية متكاملة لأنساق المجتمع وأنظمته في جميع أبعادها، وهو ما يتيح على الأقل صياغة تصوّرات ورؤى إستشرافيّة حول المستقبل.

2- موقع الدّين في البحوث الأنثروبولوجيّة :

برغم شساعة مجالات ومحاور البحث التي تُعنى بها الأنثروبولوجيا فإنّ هناك ميادين بحث تتميّز بجاذبيّة خاصّة، برغم اعتبارها من الميادين الشّائكة والصّعبة بفعل جملة من العوامل السّوسيو ثقافيّة، ولاشكّ أنّ من ضمن هذه الميادين تلك التي تتعلّق بالدّين، إذ لا يمكن اعتبار هذه الأخير – الدين – بأيّ حال بمثابة فرع أو حقل هامشي من حقول المعرفة الإنسانيّة، بل أنّ المسألة الدّينيّة في نظر كثير من الدّارسين والباحثين تشكّل علما قائما بذاته يُعرف بعلم الأديان [2].

حيث يندرج هذا الأخير في البحوث الأنثروبولوجيّة ضمن سياق ما يُعرف بالأنثروبولوجيا الدّينيّة، والتي تُعرف في بعض الكتابات

---

1) المرجع نفسه : ص 8.

2) حول الخطوط العريضة لما يُعرف بعلم الأديان أنظر الدّراسة القيّمة المُترجمة إلى اللّغة العربيّة الآتية :

- مسلان ميشال : علم الأديان – مساهمة في التّأسيس –، ترجمة عزالدّين عناية، بيروت، المركز الثّقافي العربي، ط1، 2009.

بأنثروبولوجيا الدّين [1]، ولعلّ ذلك راجع إلى أهميّة الدّين في حياة المجتمعات الإنسانيّة قاطبة، من خلال تجذّره في اللاّشعور الفردي والجماعي في جميع الأزمنة والأمكنة.

ولهذا فإنّ الأبحاث والدّراسات المهتمّة بالظّاهرة الدّينيّة أو بتعبير آخر تلك المهتمّة بالمسألة الدّينيّة، تذهب في تعريفها للدّين على أنّه "...بحسب أيّ الأشكال التي يرتديها يُقدّم تفسيرا للإنسان داخل العالم، فهو يمكّنه من ممارسة أفعال مختلفة، ومن ربط اللّحمة الاجتماعيّة، ومن تدعيم كل ما يحكم الوجود الاجتماعي... وهو يجيب كذلك عن المشاغل الفرديّة كما الشّأن عن الكروب الجماعيّة...كما أنّ التّنظيم الدّيني للزّمن يهدف أيضا لتأمين الإنسان ضد ذلك الإنزياح الزّمني الذي يقوده للممات، وكظاهرة إنسانيّة يظهر الدّين كإجابة للإنسان عن متطلّبات ظرفه الخاص، حيث يدفعه لتأمين انسجام كيانه بالتّماثل مع حقيقة أكبر وأكثر بقاء من ذاته..." [2].

ولا شكّ أنّ الأهمية البالغة التي تكتسيها المسألة الدّينيّة قد جعلت المختصّين فيما يُعرف بعلم الأديان بوجه عام والأنثروبولوجيا الدّينيّة خاصّة، يلجؤون إلى تقديم مقترحات منهجيّة تُيسّر سبيل الخوض في الظّاهرة الدّينيّة، وتهيّئ المجال لتفكيك عناصرها الرمزيّة الكامنة ضمن الممارسات والتمثّلات الدّينيّة، هذه المقترحات المنهجيّة لدراسة المسألة الدّينيّة وقراءة مختلف جوانبها تمّ حصرها من خلال توظيف المقاربة الأنثروبولوجيّة.

---

1) للاستزادة من التوسّع فيما يتعلّق بأنثروبولوجيا الدّين أنظر :

- Bonte (pierre) et Izard (Michel), dictionnaire de l’ethnologie et de l’anthro-pologie, paris, PUF, 2 édit, 2002, p 762-764.

- أوجيه مارك، وكولاين جان بول : الأنثروبولوجيا، المرجع السّابق، ص 50-56.

2) مسلان ميشال : المرجع السّابق، ص 314-315.

3- دراسة المسألة الدينيّة من المنظور الأنثروبولوجي :

ليس غريبا أن نجد مؤرّخ الأديان والمتخصّص في الآن نفسه في الأنثروبولوجيا الدّينيّة الفرنسي "**ميسلان ميشال**"- "MESLIN Michel"، يصر على ضرورة توظيف المقاربة الأنثروبولوجيّة لفهم الظّاهرة الدّينيّة، والتي يعتبرها وفق وجهة نظره الخاصّة ومن خلال خبرته الطّويلة في هذا المجال البحثي من المقاربات الهامّة بل الأساسيّة، حيث يقول ضمن هذا السّياق "...هذه المقاربة الإناسيّة - يقصد الأنثروبولوجيّة- للظّاهرة الدينيّة تبدو لي أساسيّة" [1]، ثم يضيف قائلا "...فهي الوحيدة التي يمكن أن تضفي عليه الصّبغة العلميّة " [2].

وقد أضحت المقاربة الأنثروبولوجيّة تشكّل واحدة من ضمن أشهر المداخل المعتمدة في العصر الحاضر لفهم المسألة الدينيّة وتفكيك رمزيّتها ورصد أبعادها وتجلّياتها، كيف لا وقد عُدّت من ضمن المقاربات التي بإمكانها أن تُضفي الصّبغة العلميّة، من خلال اعتمادها في دراسة المسألة الدينيّة، حيث تأتي - المقاربة الأنثروبولوجيّة - كتوجّه حديث بدأ يأخذ طريقه في التشكّل التّدريجي وفق منحى تصاعدي منذ العقد الأوّل من القرن العشرين.

وبرغم وجــود خلافات نسبيّة حول أسماء الباحثين الأوائل الذين كان لهم السّبق في التّنبيه إلى هذه الإشكاليّة المنهجيّة، من خلال تبنّي التوجّه الأنثروبولوجي في قراءة الممارسة الدّينــيّة، غير أنّ أغــلب الآراء ترجّــح اســم الباحــث "**أرنولد فان جنب**" - " **Arnold Van Gennep**"، حيث كانت للفكرة التي اقترحها سنة 1909 والمعروفة بـــ"

1) مسلان ميشال : المرجع السّابق، ص 315.

2) المرجع نفسه : ص 315.

الشّعائر العابرة"، تأثير فاعل ليس على دراسات الأنثروبولوجيا الدّينيّة وحسب بل أيضا على الأبحاث التي ركّزت على التّنظيم الاجتماعي [1].

ولا شكّ أنّ إصرار بعض العلماء المهتمّين بالأنثروبولوجيا بشكل عام والأنثروبولوجيا الدّينيّة على وجه الخصوص، على أهميّة توظيف المقاربة الأنثروبولوجيّة في دراسة المسألة الدّينيّة، إنّما يتأسّس على جملة من المبرّرات وكذا الأسباب الإبستيمولوجيّة ذات الصّلة بطبيعة الظّاهرة الدّينيّة من جهة، وكذا تلك المتعلّقة بخصوصيّة المنهج الأنثروبولوجي من جهة ثانية.

ففيما يتعلّق بالمبرّرات التي تتّصل بالظّاهرة الدّينيّة فإنّ المسألة تأخذ هامشا موسّعا من النّقاش، غير أنّها لا تخرج عن سياق استحضار العلاقة الجدليّة بين الجانبين الدّيني والثّقافي، على اعتبار أنّ "مسألة العلاقة بين الدّين والثّقافة ليست مسألة جديدة" [2]، إذ ليس بالإمكان وفق هذا التوجّه فهم الظّاهرة الدّينيّة إلاّ ضمن سياقها الثّقافي، وبتعبير آخر فإنّ فهم وقراءة الظّاهرة الدّينيّة ينبغي أن يمر عبر تفكيك وسبر أغوار علاقة هذه الأخيرة بالبعد الثّقافي.

فإذا كان الدّين هو الجانب المقدّس والمتعالي، فإنّ الثّقافة تمثّل الجانب الدّنيوي، والجدير بالإشارة أنّ التّلازم والالتصاق بين الجانبين المتعالي – المقدّس – والدّنيوي يجعل من المتعذّر فهم أحدهما بمعزل عن تأثير الآخر [3]، لأنّ "الدّين شديد الالتصاق بالثّقافة ومن الخطأ عزل

---

1) أوجيه مارك، وكولاين جان بول : الأنثروبولوجيا، المرجع السّابق، ص 52-53.

2) روا أوليفييه : حين يلتقي الدّيني بالثّقافة، ترجمة فاطمة بكّوش، مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، بغداد، مركز دراسات فلسفة الدّين، السّنة الرّابعة عشر، العدد 43-44، صيف خريف 2010، ص 128.

3) للتوسّع في مسألة علاقة الدّين بالثّقافة أنظر :

- روا أوليفييه : المرجع السّابق، ص128-163.

المقدّس عن الدّنيوي، لأنّه في عمق كل ثقافة إنسانيّة تضرب الظّاهرة الدّينيّة بجذورها" [1].

في حين أنّ المبرّرات المتعلّقة بالمنهج الأنثروبولوجي تندرج حول خصوصيّة هذا الأخير، وتستند في ذلك إلى اعتبار أنّ المنهج الأنثروبولوجي بما ينطوي عليه من أدوات منهجيّة ومنظومة نظريّة، يؤهّل الباحث للولوج إلى صُلب القضايا والنّفاذ إلى جوهر المحاور البحثيّة المستعصيّة، التي تتميّز بهلاميتها وتعدّد قراءاتها وتأويلاتها، ولا شك أنّ الظّاهرة الدّينيّة تأتي على رأس هذه المحاور.

حيث يعد هذا المبرّر المذكور آنفا المتعلّق بالمنهج الأنثروبولوجي كقناعة راسخة دافع عنها "**مارك أوجيه**" – "**Marc Augé**" ضمن كتابه **مهنة الأنثروبولوجي** بالقول أنّ "الأنثروبولوجيا على وجه الخصوص لها من العتاد ما يمكّنها من مواجهة تجلّيات العصر الرّاهن وحقائقه" [2]، ولذا فإنّ الحث على أهميّة توظيف المقاربة الأنثروبولوجيّة لدراسة الظّاهرة الدّينيّة ناتج عن إدراك الباحثين في الأنثروبولوجيا للبراعة التي يحوزها المنهج الأنثروبولوجي.

إذ يتمتّع هذا الأخير بسمات تجعله الأقدر على ملامسة لب الظّاهرة الدّينيّة وتشخيص حيثيّاتها وأبعادها، ومن زوايا غير مسبوقة ضمن المناهج المنحدرة من فروع العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، حيث عمل بعض المختصّين في الأنثروبولوجيا على محاولة الإسهام في البرهنة على "أنّ مُجمل طرق وملاحظات وتحليلات الأنثروبولوجيا يُمكن أن تساعد على شرح تعقيدات عالم معاصر، هو ضحيّة الحركات المتناقضة لتوالد التّنوّعات ولمحو الحواجز" [3].

---

1) مسلان ميشال : المرجع السّابق، ص 315.

2) أوجيه مارك : مهنة الأنثروبولوجي– المعنى والحريّة –، ترجمة محمّد الجويلي، بيروت، الدّار العربيّة للعلوم، ط1، 2010، ص13.

3) أوجيه مارك، وكولاين جان بول : الأنثروبولوجيا، المرجع السّابق، ص 7.

4- أهمية المقاربة الأنثروبولوجيّة للفكر الإسلامي المعاصر :

لاشكّ أنّ **المقاربة الأنثروبولوجيّة** للفكر الإسلامي المعاصر سوف تفتح **آفاق تفكير** جديدة، كما تساهم دون شك في **إثراء تمثّل الضّمير الإسلامي** لبعض القضايا ذات الصّلة بالموروث الدّيني والثّقافي، وهذا بغية التّصدي لمختلف المُساءلات التي تُطرح على مستوى مستجدّات الحياة اليوميّة للمسلم المعاصر، إذ تمثّل مسألة التّعامل مع حيثيّات الواقع الثّقافي والفكري والاجتماعي الرّاهن من خلال علاقتها بالتّراث الإسلامي أحد جوهر الإشكاليّات المطروحة ضمن فضاء البحث والنّقاش على مستوى الفكر الإسلامي المعاصر.

ولذا فإنّ تطبيق المقاربة الأنثروبولوجيّة في قراءة الفكر الإسلامي المعاصر هي في المقام الأوّل ودون شك، بمثابة رد على الذّين يرون أنّه ليس هناك مبرّر ولا معنى لترقّب الجديد في مجال الفكر الإسلامي بشكل عام، بعد إن اتّفق رأي الفقهاء المسلمين بل وأجمعوا على الأصول الرّئيسيّة من قرآن وسنّة وإجماع وقياس، مثلما تشابهت وجهات نظرهم في مسألة الأصول التّكميليّة مُمثّلة في الاستحسان والاستصحاب والعرف والمصالح المرسلة.

غير أنّ هذه الرّؤى السطحيّة للدّين الإسلامي بشكل عام، وللعلوم التي غدت تمثّل مرجعيّات أساسيّة للفكر الإسلامي في العصر الحاضر، لا تصمد بشكل مطلق أمام الطّرح المعرفي المبني على عمليّة البحث والاستقصاء، على اعتبار أنّ المسألة إنّما تتّصل بالإسلام كدين، الذي هو بمثابة معتقد وممارسة وفكر، وذلك "لأنّ التشكّل التّاريخي للظّاهرة الإسلاميّة في مختلف مجتمعاتها يحوي عناصر نفسيّة ومخياليّة واجتماعيّة سيّاسيّة ألّفت البنية الأنثروبولوجيّة للإسلام المعاصر، لذا استطاعت

فعاليته الرمزيّة أن تكشف عن نفسها في جميع تاريخ المجتمعات الإسلاميّة، رغـم اختلافـها الإثني واللّغوي، وأن تتجلّى في الأحداث الأكثر معاصرة لنا" [1].

ومن هنا فإنّ المقاربة الأنثروبولوجيّة تنتهي بنا إلى مُلامسة مشاكل الفكر الإسلامي المعاصر والوعي بها، ولعلّ ذلك يُشكّل لحظة حاسمة من الضّروري القفز عليها، وهذا قبل الطّموح إلى تجديد الفكر الإسلامي وتحيينه، بغية الإمساك بنقاط ومحاور تؤدّي إلى فهم ما يموج في هذا الفكر من تيارات ثقافيّة ورؤى وتصوّرات، تُحيل إلى رصد المواقف المذهبيّة وكذا المنطلقات الإيديولوجيّة التي تغذّي الأسس والمفاهيم التي تتعاطى على ضوئها المجتمعـات المسلمة في الزّمن الرّاهن حيال مسائـل هامّة ضمن الفكر الإسلامي، والتي تتّكئ على مواقف نابعة من قناعات تعكس تلك القراءات النّاشئة حيال ما طرحه – الفكر الإسلامي – من حلول لتلك الإشكاليات المستجدّة والقضايا المحوريّة الرّاهنة.

5- آليات تطبيق المقاربة الأنثروبولوجيّة في القراءة المعاصرة للفكر الإسلامي :

إنّ توظيف المقاربة الأنثروبولوجيّة في القراءة المعاصرة للفكر الإسلامي إنّما تتأسّس على تمثّل ما يقتضيه الفكر الإسلامي بمرجعيّاته ضمن المسار الزّمني التّصاعدي عبر التّاريخ، هذا المسار المتغيّر دون شك بل المتغيّر بالضّرورة، وهذا على عدّة مستويات لعلّ من ضمنها تلك المتعلّقة بالأخلاق والمعاملات وكـذا الممارسات بوجه عام، من منطلق "أنّ الإسلام كظاهرة دينـيّة لا يمكن أن يُختـزل في مجموعة من الأفكار

---

1) بهّادي منير: مفهوم الخصوصيّة الثقافيّة في الخطاب الأنثروبولوجي المعاصر، الملتقى الوطني حول "مستقبل الأنثروبولوجيا في الجزائر" – بتيميمون في 22-23-24- نوفمبر 1999-، وهران، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثّقافيّة، 2002، ص 112.

المجرّدة المفصولة عن الظّواهر الاجتماعيّة والتّاريخيّة التي عرفتها وتعرفها المنطقة الإسلاميّة" [1]، ولاشكّ أنّ هذا المنظور المسنود إلى الطّرح الأنثروبولوجي، إنّما هو تعبير عن أفول الرّؤى الأنثروبولوجيّة التقليديّة وميلاد رؤى جديدة، ترى أنّ الدّين "هو فضاء متميّز من الممارسة والاقتصاد الإنساني الذي لا يمكن اختزاله في أيّ شيء آخر" [2].

وهو ماجعل **طلال الأسد** يعتقد أنّ هناك قفزات تاريخيّة أنتجت مفهوما للدّين بوصفه مفهوما لجوهر عابر للتّاريخ [3]، ولذا فإنّ المقاربة الأنثروبولوجيّة للظّاهرة الدّينيّة تدعو إلى وضع هذه الأخيرة ضمن السّياق الاجتماعي والثّقافي الذي تطوّرت عبره، والذي وقفت ضدّه في بعض الأحيان، كما أنّها – المقاربة الأنثروبولوجيّة- تنطلق من ضرورة الاهتمام بالمسألة التّأويليّة، والتي من خلالها يتيسّر فهم كيفيّة تعبير الإنسان من خلال بحثه وفهمه للمقدّس [4].

وقد شكّلت مسألة التّأويل أحد المباحث الهامّة التي شغلت هامشا مهمّا من الدّراسات حول ثقافات الشّعوب ودياناتها في البحوث الأنثروبولوجيّة، وكان ذلك منذ ستّينيّات القرن العشرين، تحت تأثير أبحاث الأنثروبولوجي الأمريكي – **غيرتز كليفورد – Geertz Clifford**-، وقد توّجت أبحاثه الميدانيّة المطوّلة والمعمّقة في الآن نفسه حول

---

1) بهّادي منير : المرجع السّابق : ص 112.

2) الأسد طلال : بنية الدّين باعتباره صنفا أنثروبولوجيّا، ترجمة أبوبكر باقادر، مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، بغداد، مركز دراسات فلسفة الدّين، السّنة الرّابعة عشر، العدد 43-44، صيف خريف 2010، ص 92.

3) لقد أورد طلال الأسد هذا الرّأي ضمن معرض مناقشته لأفكار كليفورد غيرتز حول الدّين أنظر: – الأسد طلال : المرجع السّابق، ص 94.

4)مسلان ميشال : المرجع السّابق، ص 315.

الممارسات الثّقافيّة بشقّيها المادّي والمعنوي، والتي كانت أوّل الأمر فيما يبدو عبارة عن مجموعة من المقالات بإصداره عدّة كتب [1].

ويعد كتابه "**تأويل الثّقافات**" الصّادر سنة 1973 من ضمن الكتب الشّهيرة، لكونه شكّل الأرضيّة التي انبنت عليها تصوّراته - **غيرتز**- ورؤاه لمفهوم الثّقافة الإنسانيّة، من خلال دراسات ميدانيّة تجريبيّة أكثر ممّا هي نظريّة، حيث استطاع من خلال هذا الكتاب أن يُشرِّح التّفاصيل التي تقوم عليها نظريّته التّأويليّة، وكان لانشغال **غيرتز** بالأعمال المتّصلة بالنّظريّة التّأويليّة سبب في تعميق اهتمامه بموضوعات أخرى تتّصل بديانة المجتمعات التي كانت مجالا لدراساته الميدانيّة خاصّة أندونيسيا والمغرب.

حيث ألّف في هذا الصدد كتابا عن الإسلام من وجهة نظر الأنثروبولوجيا، من خلال معايشته اليوميّة بهذين البلدين [2]، حيث صدر هذا الكتاب سنة 1968، بعنوان "**ملاحظة الإسلام**"، وقد أثار هذا الكتاب إعجاب بعض المفكّرين، حيث مدحه **أدموند ليتش** باعتباره- الكتاب- مقارنة مستبصرة بعمق في الإسلام كما يراه الأندونيسيّون وكما يراه المغاربة [3]، وقد عالج **غيرتز** ضمن كتابه "**ملاحظة الإسلام**" الدّين وفق نفس المقاربة التي تبنّاها في تحليله للثّقافة، ولذا وحسب وجهة نظره، فإنّ جوهر الدّين لا يتغيّر بقد ما تتغيّر الرّؤى المُنتَجة نحوه من قبل الأفراد،

---

1) للإطّلاع على قائمة أشهر مؤلّفات غيرتز انظر :

- غيرتز كليفورد : تأويل الثّقافات، ترجمة بدوي محمّد، بيروت، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، ط1، 2009، ص 47، 48.

- غيرتز كليفورد : نزال الدّيكة في جزيرة بالي بوصفه لعبة، ترجمة حامد خالدة، مجلّة البحرين الثّقافيّة، مملكة البحرين، قطاع الثّقافة والتّراث الوطني، المجلّد10، العدد 37، ديسمبر 2003، هامش 3، ص 38.

2) غيرتز كليفورد : الإسلام من وجهة نظر الإناسة – التطوّر الدّيني في المغرب واندونيسيا – ترجمة أبو بكر أحمد باقدر، بيروت، دارالمنتخب العربي، 1993.

3) غيرتز كليفورد : تأويل الثّقافات، المرجع السّابق، ص45.

وهو المنطق التّأويلي الذي أضحت تتأسّس عليه المقاربة الأنثروبولوجيّة للدّين [1]

والجدير بالإشارة أنّ العمليّة المرتبطة بالتّأويل وكذا القراءة لصيقة بالدّين وبالفكر الإسلامي، حيث تنشأ باستمرار وضمن سياقات تاريخيّة محدّدة مشحونة بجملة من الخصوصيّات، تأتي على رأسها الخصوصيّات الثّقافيّة دون إغفال الجوانب الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة من خلال عمليّة التّأثير والتأثّر المُتبادلة، كما تقع تحت سلطة مجموعة من الإلزامات لا مناص لإغفالها، ودون ذلك تنقطع العلاقة بين الدّين وواقع الحياة اليوميّة.

ولعلّ أفضل مثال على ذلك هو مسايرة الفكر الإسلامي بمرجعيّاته المختلفة لواقع الحياة اليوميّة ولمستلزمات الأوضاع التي عرفها المسلمون، خلال مرحلة ازدهار الحضارة الإسلاميّة، وقد جاءت هذه المُسايرة والاستجابة كرد منطقي بفعل مجموعة من العوامل الاجتماعيّة، وكذا بفعل الأحداث الطّارئة التي أفرزتها الثّقافة السّائدة فهي بمثابة تحصيل حاصل، ولذا فإنّ الإشكال المطروح على مستوى الفكر الإسلامي منذ اكتمال نزول الوحي ليس التّغيّر في المرجعيّات الأساسيّة المُشكّلة لهذا الفكر، "إنّما هو التغيّر في التّأويل الذي قاد إلى إنشاء وتطوّر الأفكار" [2].

والمتصفّح لتاريخ الحضارة الإسلاميّة يلاحظ أنّ نزول الوحي شكّل لحظة زمنيّة فارقة في تاريخ المجتمعات التي اعتنقت الإسلام، حيث

---

1) للمزيد من التوسّع حول تأويل الدّين في فكر غيرتز انظر :

- صالحي محمّد إبراهيم : الدّين بوصفه شبكة دلاليّة، ترجمة مصطفى مرضي، مجلّة إنسانيات، وهران، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، السنة الرّبعة عشر، العدد 50، أكتوبر- ديسمبر، 2010، ص31-32.

2) أيمن فتحي محمّد غانم : القضايا الأنثروبولوجيّة في القرآن الكريم - جدل المعرفة والسّلطة في بناء الأسرة وتطوّر العمل -، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع غير منشورة، كليّة الدّراسات العليا، الجامعة الأردنيّة، 2007، ص 3.

لعب الإسلام كدين وكمنظومة فكريّة أدوارا محوريّة، كما مثّل قاعدة ارتكاز قويّة في مختلف مجالات الحياة وأغلب الأحداث التي عرفتها المجتمعات التي لامستها تلك المنظومة الفكريّة، هذه الأخيرة التي نشأت انطلاقا من المرجع الأساسي ممثّلا في النّص القرآني، ثم بقيّة المرجعيّات الأخرى التي أفرزتها الأوضاع الثّقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، مع مرور الزّمن وتعاقب الأحداث وتشعّب القضايا المطروحة.

ووفق هذا السياق فإنّ الإسلام كدين وكمنظومة فكريّة يمكن اعتباره "أحد الأنساق الفرعيّة الأكثر إسهاما في تشكيل النّسق الكلّي للمجتمع، ومن هنا يستمد الخطاب الدّيني سلطته الشّرعيّة، ذلك أنّه يجمع الأفراد والجماعات ضمن منظومة ذهنيّة، ففي كل حقبة تاريخيّة هناك بنية ذهنيّة تمثّل منظومة فكريّة عامّة ينتــقي منها العــقل الفردي أفكاره وتصوّراته" [1].

إنّ توظيف المقاربات الأنثروبولوجيّة في القراءات المعاصرة للفكر الإسلامي ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار جملة من الآراء المتناقضة التي تقف حيال هذا الفكر، وتنظر إليه وفق رؤى وأحكام متمايزة، تتراوح بين الموقف التّمجيدي وموقف الطّعن والانتقاد، إذ يجب على الباحث أن يبتعد قدر الإمكان عن هذين الموقفين، من خلال التحلّي بقدر كاف من الموضوعيّة بالوقوف على مسافة واحدة حيال هذه الآراء دون أن يتحيّز لموقف من المواقف.

بحكم أنّ الفكر الإسلامي يتميّز باتّساع وثراء وغزارة محاوره ومنطلقاته، وكذا تعدّد التّفاسير التي نشأت حوله، وهو بهذا يحتاج إلى قراءة تتميّز بالهدوء والعمق، مع تسلّحها بحس نقدي يأخذ بعين الاعتبار سلامة الرّؤية ودقّة التّحليل، من خلال الإلمام بعناصر المنهج

1) أيمن فتحي محمّد غانم : المرجع السّابق : ص1.

الأنثروبولوجي، وامتلاك القدرة على تطويع آلياته في قراءة الفكر الإسلامي المعاصر.

6- قراءة في واقع المقاربات الأنثروبولوجيّة للفكر الإسلامي المعاصر :

إنّ حجم الانفتاح على مناهج العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة المعاصرة ومنها المنهج الأنثروبولوجي، الذي أضحى يميِّز المشهد الأكاديمي على السّاحة العربيّة الإسلاميّة مع نهاية الثّمانينيّات من القرن العشرين وصولا إلى أيّامنا هذه، قد أفرز محاولات فرديّة لبعض الباحثين والمختصّين في شتّى ميادين العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، من خلال الاستفادة من مناهج هذه العلوم وكذا محاولات تأصيلها، وهذا بغرض توظيفها في القراءات والتّحليلات المختلفة لبعض الظّواهر الاجتماعيّة والثّقافيّة، ومن ضمنها تلك التي تتّصل بالفكر الإسلامي المعاصر.

وضمن هذا السّياق تحضر جملة من المحاولات التي تستند إلى المناهج المنحدرة من العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الغربيّة المعاصرة، لمقاربة الفكر الإسلامي ومحاولة البحث في حيثيّاته من زوايا مختلفة، حيث تعدّدت المقاربات الفكريّة المعاصرة التي جاد بها بعض المفكّرين العرب، هؤلاء الذين كان اهتمامهم منصبّا على معالجة الرّاهن الفكري الذي تعيشه المجتمعات العربيّة الإسلاميّة، هذا الرّاهن الذي يطبعه التعثّر النّاشئ عن سوء فهم التّراث، وسوء توظيفه والاستفادة منه في الواقع.

ولعلّ من ضمن تلك المحاولات نذكر على سبيل المثال لا الحصر تلك الإسهامات المُنجزة من طرف كل من محمّد عابد الجابري، نصر حامد أبوزيد، طيّب تيزيني، صادق جلال العظم، هشام جعيّط، وغيرها من المحاولات الأخرى التي لا تقلّ أهميّة عنها، غير أنّ أهم ملاحظة تتعلّق بهذه المحاولات أنها عبارة عن قراءات نابعة من حقول الاشتغال المختلفة لأصحابها، ولذا فهي مختلفة باختلاف مشاربهم ومنطلقاتهم الفكريّة التي دون شك تؤثّر على رؤاهم وتمثّلاتهم للمسألة.

غير أنّ الإشكال المطروح على مستوى المباحث والمناهج التي يمكن أن تُطبّق في دراسة الفكر الإسلامي، وبالإمكان أن يجد فيها هذا الأخير موطنا فكريّا خصبا ومجال بحث متميّز، ونقصد بذلك مناهج الأنثروبولوجيا على وجه الخصوص، فإنّها ضعيفة الانغراس في تربة الثّقافة العربيّة المعاصرة، وضمن الحقل الأكاديمي العربي بوجه عام وهي بهذا تعيش لحظة التّكوين.

وبرغم عدم اندراج الأنثروبولوجيا بالحجم الكافي ضمن فضاء الممارسة الأكاديميّة في الجامعات العربيّة، وضمن المحيط الثّقافي للمجتمع العربي بوجه عام، فإنّ ذلك لم يمنع ظهور محاولات جادّة أخذت على عاتقها تبنّي المقاربات الأنثروبولوجيّة، وفي بعض الحالات الاستفادة من النّظريّات الأنثروبولوجيّة، وكذا توظيف بعض أدوات المنهج الأنثروبولوجي، وهذا ضمن مسعى الدّراسة والبحث في الفكر الإسلامي بشكل عام أو قراءة لبعض جوانبه الواسعة والمتشعّبة.

حيث تأتي على رأس هذه الإسهامات المستندة إلى الطّرح الأنثروبولوجي مجموعة الأعمال التي قام بها المفكّر محمّد أركون، الذي حاول التّأسيس لمشروع فكري سمّاه الإسلاميّات التّطبيقيّة، والذي يُعنى بالقراءة العلميّة للتّراث الإسلامي بشكل عام، من خلال البحث في المرجعيّات الفكريّة التي يتأسّس عليه هذا التّراث على وجه الخصوص، بتوظيف مجموعة المناهج المنحدرة من العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، ومن ضمنها اللّسانيّات والفلسفة والتّاريخ والأنثروبولوجيا.

ويعلّق محمّد أركون على هذا المشروع الفكري بالقول "فهذا العلم الذي دشّنته قبل بضع سنوات يهدف إلى قراءة ماضي الإسلام وحاضره انطلاقا من خطابات المجتمعات الإسلاميّة والعربيّة وحاجياتها الحالية" [(1)]، وهو بهذا يهدف إلى تقديم إجابات للرّأي العام الإسلامي كما قال من خلال

1) أركون محمّد : الفكر الإسلامي– نقد واجتهاد –، ترجمة وتعليق هاشم صالح، بيروت، دار السّاقي، ط5، 2009، ص 35–36.

محاولة "تخليصه من السّياج الدوغماتي المغلق الذي تسجنه فيه الثّيولوجيا التّقليديّة" [1].

وبرغم الجديّة والجرأة التي اتّسم بها المشروع الفكري لمحمد أركون المعروف بالإسلاميّات التّطبيقيّة، من خلال دعوته إلى ضرورة الاستفادة من مناهج العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة ومن ضمنها المنهج الأنثروبولوجي، وتطبيقها في دراسة الفكر الإسلامي ومحاولة سبر أغواره، بتسليط الضّوء على بعض الجوانب المسكوت عنها التي يزخر بها الفكر والتّراث الإسلاميين، فإنّ هناك مآخذ منهجيّة حالت دون وضوح هذا المشروع الفكري وتعذّر موضعته ضمن حيّز التّطبيق على الفكر الإسلامي بشكل جلي وواضح.

وبرغم المآخذ المنهجيّة التي ميّــزت المشروع الفكري المعروف بالإسلاميّات التطبيقيّة، فإنّ تأثيراته جعلت من الأنثروبولوجيا كتخصّص علمي حديث بما ابتدعته من **آليات وأدوات منهجيّة** وما انطوت عليه من **تصوّرات نظريّة**، تُشكّل **أحد المداخل** التي تتأسّس عليها **القراءات المعاصرة** للفكر الإسلامي، من خلال مناقشة بعض الزّوايا ذات الصّلة بالتّراث التّاريخي والثّقافي الذي يؤثّث الفكر الإسلامي ويغذّي مرجعيّاته.

وقد كسب هذا التوجّه الفكري الجديد شهرة واسعة ضمن الفضاء الفكري، وخلّف صدى واسعا لدى الأوساط الأكاديميّة والنّخب الفكريّة في المجتمعات الغربيّة مثلما هو الحال كذلك في المجتمعات العربيّة الإسلاميّة، حيث صار له أتباع يدعون إلى ضرورة تطبيق المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الفكر الإسلامي ومصادره الأولى، مع إمكانيّة الاستفادة من مختلف المناهج الفكريّة المنحدرة من العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، كما استقطب شرائح واسعة من المفكّرين والمتتبّعين، مثلما أخذ في الانتشار بين فئات الطّلبة ذوي الميول والاهتمامات الفكريّة المتعلّقة بتخصّصات الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

---

1) المرجع نفسه : ص36.

الخاتـــمة :

في نهاية هذه الورقة العلميّة الموسومة بـــ "حضور المقاربات الأنثروبولوجيّة في القراءات المعاصرة للفكر الإسلامي"، يمكن أن نخلص إلى مجموعة من المواقف والاستنتاجات، ندرجها ضمن النّقاط الآتية :

- إنّ مناقشة حضور المقاربات الأنثروبولوجيّة في القراءات المعاصرة للفكر الإسلامي يحتاج إلى بحث معمّق، ومن المتعذّر الإلمام والإحاطة بالموضوع ومن جميع الجوانب في عدد محدود من الصّفحات، بحكم إنّه يشكّل أحد المباحث الحديثة في حقل الدّراسات الأنثروبولوجيّة وكذا في حقل الدّراسات ذات الصّلة بالفكر الإسلامي.

- يجب أن يأخذ الفكر الإسلامي مكانته وهذا بأداء الأدوار المنوطة به مثلما كان زمن ازدهار الحضارة الإسلامية، من خلال مواجهة عوامل التقوقع والجمود والانطواء على آراء ومواقف ومقولات أصبحت مُتجاوزة في نواحي كثيرة، بغية مسايرة الأسئلة والمستجدّات الرّاهنة التي يطرحها المحيط السّوسيو ثقافي للمسلم المعاصر، ولاشكّ أنّ هذا الطّرح يؤدّي بنا إلى القول والجزم أنّه ليس من المنطقي الاحتفاظ ببعض الرّؤى والمواقف الموروثة عن فترة زمنيّة ومحيط سوسيو ثقافي مغاير لزماننا.

- إنّ المقاربة الأنثروبولوجيّة تسعى إلى مُلامسة مشاكل الفكر الإسلامي المعاصر والوعي بها، ولعلّ ذلك يُشكّل لحظة حاسمة من الضّروري القفز عليها، وهذا قبل الطّموح إلى تجديد الفكر الإسلامي وتحيينه.

- يؤدّي المنهج الأنثروبولوجي إلى إزالة اللُّبس حيال المسائل الكبرى التي يطرحها الفكر الإسلامي المعاصر، من حيث تفهّم المواقف المختلفة التي يعجّ بها هذا الفكر، كونها تمثّل تعبيرا عن المنطلقات التي تحكمها الخلفيّات الثّقافيّة حيال فهمها للفكر الإسلامي في تعاطيه مع المستجدّات المختلفة.

قائمة المراجع

1- أركون محمّد : الفكر الإسلامي - نقد واجتهاد -، ترجمة وتعليق هاشم صالح، بيروت، دار السّاقي، ط5، 2009.

2- أوجيه مارك : مهنة الأنثروبولوجي- المعنى والحريّة -، ترجمة محمّد الجويلي، بيروت، الدّار العربيّة للعلوم، ط1، 2010.

3- أوجيه مارك، وكولاين جان بول : الأنثروبولوجيا، ترجمة جورج كتّورة، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ط1، 2008.

4- مسلان ميشال : علم الأديان - مساهمة في التّأسيس -، ترجمة عزالدّين عناية، بيروت، المركز الثّقافي العربي، ط1، 2009.

5- روا أوليفييه : حين يلتقي الدّيني بالثّقافة، ترجمة فاطمة بكّوش، مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، بغداد، مركز دراسات فلسفة الدّين، السّنة الرّابعة عشر، العدد 43-44، صيف خريف 2010.

6- الأسد طلال : بنية الدّين باعتباره صنفا أنثروبولوجيّا، ترجمة أبوبكر باقادر، مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، بغداد، مركز دراسات فلسفة الدّين، السّنة الرّابعة عشر، العدد 43-44، صيف خريف 2010.

7- بهّادي منير : مفهوم الخصوصيّة الثّقافيّة في الخطاب الأنثروبولوجي المعاصر، الملتقى الوطني حول "مستقبل الأنثروبولوجيا في الجزائر" - بتيميمون في 22-23-24- نوفمبر 1999-، وهران، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثّقافيّة، 2002.

8- أيمن فتحي محمّد غانم : القضايا الأنثروبولوجيّة في القرآن الكريم - جدل المعرفة والسّلطة في بناء الأسرة وتطوّر العمل -، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع غير منشورة، كليّة الدّراسات العليا، الجامعة الأردنيّة،2007.

9- غيرتز كليفورد : تأويل الثّقافات، ترجمة بدوي محمّد، بيروت، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، ط1، 2009.

10- غيرتز كليفورد : الإسلام من وجهة نظر الإناسة – التطوّر الدّيني في المغرب واندونيسيا – ترجمة أبو بكر أحمد باقدر، بيروت، دارالمنتخب العربي، 1993.

11- غيرتز كليفورد : نزال الدّيكة في جزيرة بالي بوصفه لعبة، ترجمة حامد خالدة، مجلّة البحرين الثّقافيّة، مملكة البحرين، قطاع الثّقافة والتّراث الوطني، المجلّد 10، العدد 37، ديسمبر 2003.

12- صالحي محمّد إبراهيم: الدّين بوصفه شبكة دلاليّة، ترجمة مصطفى مرضي، مجلّة إنسانيات، وهران، المركز الوطني للبحث الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة والثقافيّة، السنة الرّبعة عشر، العدد 50، أكتوبر- ديسمبر، 2010.

13- Lombard (jaque), introduction à l'ethnologie, paris, Armand Colin, 1999.

14- Bonte (pierre) et Izard (Michel), dictionnaire de l'ethnologie et de L'anthropologie, PUF, 2 édit, 2002.